

(٩، ١٠): [الأول، الآخر]

ودليل هذين الاسمين الكريمين:

- قول الله - عز وجل - : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

- ومن السنة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: (اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى ومُنزِل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر)»^(١).

ولم يرد ذكر هذه الأسماء الحسنى إلا مرة واحدة في القرآن، وكذلك في السنة.

المعنى اللغوي لاسمه سبحانه (الأول):

قال الراغب في المفردات: «الأول: الذي يترتب عليه غيره ومستعمل على أوجه:

أحدها: المتقدم بالزمان كقولك: عبد الملك أولاً ثم منصور.

الثاني: المتقدم بالرياسة في الشيء، وكونه غيره محتدياً به نحو: الأمير أولاً ثم الوزير.

(١) مسلم (٢٧١٣).

الثالث: المتقدم بالوضع والنسبة، كقولك للخارج من العراق: القادسية أولاً ثم فيد، وتقول للخارج من مكة: فيد أولاً ثم القادسية. الرابع: المتقدم بالنظام الصناعي. نحو أن يقال: الأساس أولاً ثم البناء^(١). وقال الزجاج: «(الأول) هو موضع التقدم والسبق^(٢)».

أما معنى هذا الاسم الكريم في حق الله تعالى:

فيكفينا تفسير أعلم البشر بالله تعالى؛ وهو قول الرسول ﷺ: (أنت الأول فليس قبلك شيء).

ولذلك قال ابن جرير - رحمه الله تعالى - في تفسيره: « هو (الأول): قبل كل شيء بغير حد^(٣)».

وقال الخطابي رحمه الله تعالى: « (الأول) هو السابق للأشياء كلها، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق، فاستحق الأولوية، إذ كان موجوداً، ولا شيء قبله ولا معه^(٤)».

وقال البيهقي: « (الأول) هو الذي لا ابتداء لوجوده^(٥)».

وقد جرى على السنة كثير من المتكلمين وبعض أهل السنة - أحياناً - تسمية (الرب) تعالى (بالقديم)، والقديم ليس من أسماء الله تعالى الحسنى.

(١) المفردات ص ٣١ - ٣٢.

(٢) تفسير الأسماء ص ٥٩.

(٣) تفسير الطبري ١٢٤/٢٧.

(٤) شأن الدعاء ص ٨٧.

(٥) الاعتقاد ص ٦٣.

والتزام تسميته بـ (الأول) هو الموافق للكتاب والسنة، واللغة، ويؤدي ما يؤديه (القديم) وزيادة؛ فإن (القديم) يعم كل متقدم على غيره في الزمان، وأما (الأول) فإنه يدل على التقدم المطلق على كل شيء.

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: « (الأول): يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويجب على العبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية إذ السبب والمسبب منه تعالى»^(١).

المعنى اللغوي لاسمه سبحانه (الآخر):

قال الراغب رحمه الله تعالى: «(الآخر) يقابل به (الأول)، (وآخر) يقابل به (الواحد)»^(٢).

و(الآخر) ما يقابل الأول وهو ما ليس بعده شيء إما مطلقاً، وإما باعتبار عدد مخصوص كآخر الشهر، وآخر السنة، وآخر سطر في الورقة. وقال الزجاج: « (الآخر) هو المتأخر عن الأشياء كلها ويبقى بعدها»^(٣).

المعنى في حق الله تعالى:

قال الخطابي: « (الآخر) هو الباقي بعد فناء الخلق. وليس معنى (الآخر) ما له انتهاء، كما ليس معنى (الأول) ما له ابتداء»^(٤).

وقال البيهقي: « (الآخر) هو الذي لا انتهاء لوجوده»^(٥).

(١) شرح الأسماء الحسنى ص ١٦٩، دراسة وتحقيق عبيد بن علي العبيد.

(٢) المفردات ص ١٣.

(٣) تفسير الأسماء ص ٦٠.

(٤) شأن الدعاء ص ٨٧.

(٥) الاعتقاد ص ٦٣.

وقال الطبري: « (الآخر) بعد كل شيء بغير نهاية»^(١).

وأحسن التعريفات وأكملها ما فسره أعرف البشر بالله - عز وجل - وذلك في قوله ﷺ: (وأنت الآخر فليس بعدك شيء)^(٢).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «سبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بأخريته»^(٣).

ودليل هذا الاسم الكريم من الكتاب والسنة قد سبق ذكره في الحديث عن اسمه سبحانه (الأول) فليرجع إليه. ولم يرد اسم (الآخر) إلا مرة واحدة في القرآن، ومرة واحدة في السنة وهما في الدليلين المذكورين سابقاً. والله أعلم.

من أشار الإيمان بهذين الاسمين الكريمين:

يذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - هذه الآثار فيقول: «فعبوديته باسمه (الأول) تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب، والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك، وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد وفضله سابق على الوسائل. والوسائل من مجرد فضله

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢١٥.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٦.

(٣) مدارج السالكين ٣/١١٣.

وجوده؛ لم تكن بوسائل أخرى. فمن نزل اسمه (الأول) على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً وعبودية خاصة.

وعبوديته باسمه (الأخر) تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة، وتنقضي بالآخريه، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بـ(الأخر) سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به. فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتداءً منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له، ولا فلاح، ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ. فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تأهلك إليه لتصح عبوديتك، وكما ابتداءً وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتأهلك إليه لتصح لك عبوديته باسمه (الأول والآخر) وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه (الأول) وإنما الشأن في التعبد له باسمه (الأخر) فهذه عبودية الرسل

وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده»^(١).

ثم يذكر - رحمه الله تعالى - بعض أسرار اقتران اسمي الجلالة (الأول، الآخر) فيقول: «قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولاً فاهتدوا فزادهم هدى ثانياً... وهذا من سر اسميه (الأول والآخر): فهو المعد وهو الممد، ومنه السبب والمسبب وهو الذي يعيد من نفسه بنفسه كما قال أعرف الخلق به: (وأعوذ بك منك)^(٢)»^(٣).

ويقول أيضاً: «منه المبدأ وإليه المعاد وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْأُمْتَبَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]»^(٤).

وقال رحمه الله تعالى: «الغايات والنهايات كلها إليه تنتهي: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْأُمْتَبَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ فانتهدت إليه الغايات والنهايات؛ وليس له سبحانه غايةً ولا نهايةً؛ لا في وجوده، ولا في مزيد وجوده، إذ هو (الأول) الذي ليس قبله شيء، و(الآخر) الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه؛ بل كلما ازداد له العبد شكراً: زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة: زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قرباً: لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبداً لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء: إن أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاء.

(١) طريق المهجرتين ص ٢٠، ٢١.

(٢) مسلم ٤٨٦.

(٣) مدارج السالكين ١/٣١٣ (باختصار).

(٤) أعلام الموقعين ١/١٤٣.

فإن نعيمهم متصلٌ ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه؛ ولا لمزيده، ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [سورة ص: ٥٤].

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم؛ وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني؛ فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يُنقص المَخيطُ إذا أُدخل البحر) ^(١) «^(٢).



(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مدارج السالكين ٢/٢٦٨.